التصرفات العصبية أو الرغبات اللا إرادية

جذورها البعيدة التي تمتد الى قاع النفس

إن القصص التي سوف أضعها أمام القارئ من صميم الحياة، وهي مرآة للنفسيات المختلفة من البشر، ويمكن للقارئ أن يرى فيها كيف ترسخ الرغبات الكامنة في قاع النفس وتأخذ مظهرا يخالف حقيقتها، وكيف أن الحب للشيء يأخذ مظهر الامتعاض منه وكيف تأخذ الكراهية مظهر الحب؟!.

ففي كثير من الأحايين تتلوى المسائل على الإنسان ويعجز عن تفهم الهدف الذي ترمي إليه الأغراض النفسية الكامنة في القاع؛ فأنت إذا أردت شيئا وعجزت عن الحصول عليه لأمر ما انتابك قلق وتردد وحيرة واضطراب، فتوتر عصبي شديد، فانهيار نفسي، وفي ذلك الانهيار النفسي تصبح أعمى وأصم غير مدرك للحقائق التي أمامك وغير قادر على معرفة قيم الأشياء

والآن أضع أمام القارئ قصة من أغرب قصص الانحراف النفسي التي مرت أمامي، وهى لرجل في الخمسين من عمره جاء لزيارتي وبمجرد أن رآني ابتدرني قائلا «إنني رجل شقي لأني أعرف أن حياتي معرضة لعدوى

السل؛ فلي صديقة، وصديقتي هذه مصابة بالسل وسينتقل المرض منها إلى شخصي».

فسألته عما لو أن صديقته مصابة بهذا الداء فعلا؛ فرد قائلاً

«فعلا أو أنها على الأقل في سبيل الإصابة به».

ثم راح يقص على قصة غريبة فقال: أنه وصله يوما ما خطاب من صديقته، والغريب في قصة هذا الخطاب أنه لما ذهب إلى مكتبه كان متأخرا عن عادته ووجد صديقه الذي يُزامله بالمكتب قد سبقه إليه، ووجد الخطاب على مكتبه وكان على الغلاف الخلفي للخطاب إشارة لحرفين (م. ن) وهما إشارة لاسم الصديقة، ثم استطرد قائلا:

ولا شك أن صديقي قد قرأ غلاف الخطاب المرسل لي وعرف منه عنوان الفتاة، وأعتقد أنه راح يضع الخطة لزيارتها ومما أخشى له أن يكون قد تمكن من الاتصال بها

فسألته فيم لو أن صديقه مصاب بالسل؟!.. فأجاب بالنفي. ولما سألته عما يخفيه إذن من مسألة العدوى، قال: أن له جارًا مُصابًا بالسل منذ بضع سنوات، ومع أن هذا الجار قد شُفِي إلا أن آثار المرض ما زالت باقية عنده.

فسألته مُستغربًا عن مخاوفه التي تتعقد مع بعضها والتي تجيز نقل داء السل إليه من مجرد قراءة عنوان؛ فلم يحر جوابًا، ثم سألته عن اسم صديقته؛ فقال «اسمها مينا».

وكان غرضي من سؤالي عن اسم صديقته لأن تجاربي علمتني دائمًا بأن أمثال هؤلاء المصابين يحبون في صديقاتهم أن يكون الاسم فيه صلة بإحدى قريباتهم؛ وعندئذ تقدمت نحوه خطوة في تفكيري فسألته: أو هل اسم «مينا» ينطبق على أمك أو أختك؟. فأجاب

– إنه اسم زوجة أبي.

– هل هي تُعاني مرض السل؟!

– لا، ولكن أُمي توفيت بمرض السل.

أظن الأمور قد وضحت الآن، فنحن أمام شاب شديد التعلق بعائلته شديد التمسك بأهداب التاريخ الذي عاشت فيه أمه؛ فتبادلنا الكلام وتدرجنا في الحديث لنزيح الستار عن صديقته هذه، فطلبت منه أن يتحدث لي عنها، فقال:

– إنها امرأة سيئة الخلق وأني أبغضها وأمقتها.

ثم استطرد في حديثه وقال:

– ولكم تمنيت أن تموت! ولكم سامرني التفكير الشديد في أن أخنقها وأتخلص منها، فأنا أكرهها كرهًا شديدًا ولكني أقف مذهولًا من

أمري، فكم هو غريب إلى نفسي أن أكره هذه المرأة، وكم هو غريب أيضًا أن أشتهيها عندما أكرهها.

ولما تحدث عن أمه تمكنت أن أدرك العطف النبيل الذي كانت تصبغه الأم عليه، فقد عاشت من أجله وكرست حياتها له، وكان هو من جانبه يكبر تلك الصفات النبيلة التي كانت تتسم بها أمه، فكان يُجاوب عواطفها بالرقة والعطف والحنان.

أما زوجة أبيه فكانت على النقيض امرأة شريرة سيئة الخلق لا ضمير لها أو إحساس أو عطف، ومن ثم كان حُبه لزوجة أبيه في صورة من الكراهية، فقد كان يتضارب مع حب الأم، فكأن الكراهية هي الحب في صورة مقلوبة الوضع.

أما صديقته فكانت لديه بمثابة بديل يعوضه حبه لأمه وكراهيته لزوجة أبيه. كانت بمثابة الصورة التي يرى فيها الحب والبُغض مُجتمعين، فهي تحمل اسم زوجة أبيه، أعني أنها تحمل الشبه الذي يقترب بها من زوجة أبيه.

أما وجه الشبه الذي يربط هذه الفتاة بأمه فقد ظل بعيدًا، ومن ثم راح يُفكر في طريقة أو وسيلة يُحاول أن يبحث فيها عن شبه، وكان التفكير لا شعوريا فتمنى أن تمرض بالسل حتى يصبح فيها شبه كبير من أمه. ومن ثم راح ذهنه عن طريق غير مُباشر يلعب دوره في قصة الخوف من الإصابة بالسل، وقد تعود هذا الرجل زيارة هذه الفتاة ومُساعدتها ماديًا، فكان من

حين لآخر يمنحها بعض النقود الذهبية، وكان يُفضل أن ينقدها الذهب عن أي شيء آخر، والغريب أن اسم أُمه كان (ذهب).

إن الفكرة التي كانت تُسامره بأن يتمنى أن تكون صديقته هذه مريضة بالسل، هذه الفكرة فيها معان مُختلفة، ففي مرض الصديقة بالسل فرصة تتيح له التخلص منها، ومن أجل ذلك راح يتمنى لها الموت، فقد خاطره خاطر الزواج منها، ولكنه كان يطرد ذلك الخاطر لأنه في قرارة نفسه لا يريدها، أما إذا أُصيبت بالسل فإن وفاتها تصبح على الأبواب، وحتى إذا لم تمت فالسل عُذر قوي يُبرر عدم زواجه منها، وحتى لو جاز وتزوجها فالسل أيضًا يقف عاملًا قويًا يحول دون الحمل والولادة، وبذلك يتحاشى النسل منها.

أما المعنى الآخر الذي يجيش بصدره فخاص بزوجة أبيه، فقد راحت المرأة تُطارده في بيت أبيه وتُلاحقه بفظاظة قلبها فكرهها وبغضها، على أن هذه الكراهية وهذا البُغض يحملان معنى عكس معنى الحب الخفي، فقد تمنى الرجل لو أن زوجة أبيه كانت في رقة أمه كي تندثر الكراهية المُستعرة بينه وبينها ليقوم على أنقاضها حنان وعطف، فلما عجز عن الحصول على عطف زوجة أبيه وجه نظره صوب تلك الفتاة «مينا» مُستعيضًا عنها بها، زاعمًا أنهما يحملان اسمًا واحدًا، فكان حُبه للفتاة هو في الواقع حبه للاسم (مينا) وهو اسم زوجة أبيه أيضًا.

وأنتقل إلى قصة فتاة في الـ ٢٣ من عمرها أجبرتها أمها أن تتزوج رجلًا لا تحبه، وكان الزواج نغمة حزينة في قصة غير مُوفقة، فقدكان الزوج رجلًا عصبي المزاج ضعيف الهمة كسولًا يحب البطالة.

أما الفتاة فقد كانت مُنذ نعومة أظافرها مُرهفة العاطفة رقيقة الشعور، وكان ينتابها وهي آنسة قبل الزواج مرض عصبي يشبه الصرع، فكانت إذا اضطرت لأن تعبر أحد الشوارع العامة أو الميادين أو مُفترق الطرق أحست كأنه سيغمى عليها وتسقط فاقدة الوعي.

وبعد الزواج أنجبت طفلًا، ثم مرت سنة أخرى وأنجبت طفلًا آخر، وبعد ولادته ببضعة أشهر أصيب بمرض مُفاجئ عنيف لم يمهله طويلًا فاختطفه الموت بغتة من بين يديها.

وكان لعنصر المفاجأة والأحداث السريعة التي مرت أمامها من حمل وولادة وحضانة وموت مُفاجئ، كان له أكبر الأثر على نفسيتها فانتابتها حالة تشبه الذهول، فجفت الدموع في عينيها.

وأدهشها أن ترى الكثيرات من أقاربها وصويحباتها يبكين الطفل المسجى على فراشه بينما هي كانت تتحرق على نقطة من الدمع، كما أُصيبت بلطشة نفسية أخرى، فكان ينتابها سرحان الفكر وشرود العقل، وكانت تجلس ساهمة، وإذا نظرت إلى شيء أمامها ظلت جامدة مُدة طويلة فلا تقلع نظرها عنه إلا بمجهود كبير.

كما أصبحت بعد ذلك امرأة باردة في عواطفها فكانت ترى نداء الطبيعة فكرة بغيضة إليها، فابتعدت عن زوجها وأنفت منه، ثم تطورت بها المسألة العصبية فانتابها إحساس غريب فراحت تعتقد بأنها على أبواب الموت، وتملكها هذا الشعور القوي الذي كان يُؤكد لها أن الموت قريب جدًا منها، فكانت إذا تحدثت إلى أي إنسان قالت له: «إني سأموت... إني سأموت» ثم ازدادت حالتها سوءًا فراحت تشك في كل شيء تُقابله وتشك في حقيقة الوجود؛ فكانت إذا أمسكت بيدها قلمًا مثلًا راحت تتحسسه جيدًا لتتأكد أن الذي في يدها هو قلم، وكانت إذا جلست على مقعد راحت تتحسس المقعد لتتأكد بأنها تمسك بيدها مقعد وأنها تجلس على مقعد، وكانت إذا نظرت أمها راحت تسائل نفسها «هل هذه هي أمي؟!» فكأنها كانت تشك في حقائق الأشياء التي كانت تلمسها أو تراها.

«ورأت مرة منامًا أفزع حياتها وهدم كيانها النفسي؛ فقد رأت زوجها يقتل آخر»، وكان في ذلك المنام ما زاد من اضطراب أعصابها، فقد ظلت صورته ماثلة أمامها فترة طويلة دون أن تتمكن من أن تطرد المنظر المريع من أمام عينيها.

وازدادت حالتها اضطرابًا فراحت تتساءل عن الأشياء التي أمامها، فكانت تسأل «ما هو اللون الأحمر؟!.. ما هي المعدة؟!.. وما هي الرئة؟!.. إن هذه كلمات لا وجود لها ولا حقيقة لأصلها، إنها مُرادفات إلى جوار بعضها لا تحمل معنى».

ثم ازدادت حالتها سوءًا فقد انتابها شعور من الخوف بأنه قد تأتيها لطشة من الجنون فتقتل ابنها الوحيد، ولكي تطمئن نفسها جمعت كل السكاكين التي في الدار ووضعتها في حقيبة ووضعت الحقيبة في دولاب وأغلقت الدولاب بمفتاح وألقت بالمفتاح في مكان بعيد الحصول عن يدها «وكانت إذا أمسكت ابنها واحتضنته خُيِلَ إليها أنها ترى أمعاءه الداخلية».

وبعد كل هذا الاضطراب العصبي راحت تحلم بخيالات وأحلام اليقظة فكانت تحس كأن الغمة ستنقشع عن قريب وأن الله سيرسل من عنده رسولًا إليهما يُباركها ويُخلصها من الهوس الذي تعيش فيه وكانت تظن بأنه سيأتي هذا اليوم وفعلًا تخيلت نفسها جالسة في حديقة دارها وأن شبحًا كبيرًا له ذقن طويلة وعليه مهابة يتقدم إليها في تؤدة ليقول لها بأنه الله وأنه أتى من سمائه بنفسه ليُباركها فلن تُؤذي أحدًا بعد اليوم.

أنا نتساءل عن الطبيب الذي يُمكن له أن يُعالج هذه المرأة؟!.. وإلى أي مدى يمكن أن يفسر حقيقة نفسها وحقيقة هذه الخيالات التي تتماوج أمام ذهنها أن أكفأ طبيب لن يتمكن من علاج هذه المرأة ولن يتمكن من أن يساعدها في سبيل الحصول على الشفاء، أما تفسير القصة فواضح، فقد زفت إلى رجل لا تحبه أما الرجل الحقيقي الذي كانت تحبه فهو شقيق زوجها، فقد عاشت تتمنى لو أنه كان زوجها ولكن وجود زوجها هي ووجود ابنان لها، كانت كل هذه المسائل بمثابة عقبات تقف أمامها في سبيل الوصول إلى الرجل الذي تود الحصول عليه، ومن ثم تمنت لو أن

يموت زوجها ويلحق به أبناؤها وكان لها (سلفة) فتمنت موتها أيضا حتى يخلو الطريق أمامها من العقبات التي تحول دون الوصول إلى الرجل الذي تحبه.. والآن وأمام هذه الرغبات المريرة راح شعورها الكامن يطفح بالشرور وينطق بالإثم؛ فلم يكن أمامها غير الشرور وسيلة تمهد بها طريق السعادة، وكان في ذلك ما أثارها وأثار ضميرها وجعلها تنظر الى نفسها امرأة مجرمة فكرهت نفسها ثم تمنت لها الموت وكان هذا هو السبب الذي جعلها تتخيل الموت قريبا منها وجعلها تضطرب في حياتها وجعلها تقول «إني سأموت»

وفى هذا الوقت الذي كانت تضطرب فيه نفسيتها تصادفه أن مرض طفلها ثم مات وكانت دهشة الفتاة من جفاف دموعها عندما وجدت نفسها جامدة لا تبكي الميت كما يفعل كل الناس، على أن جفاف الدموع كان كرد فعل لحالة الرضاء عن الوفاة ومباركة الموت، وبذلك تحقق أول أمل من الآمال التي كانت تجيش في صدرها عندما أزاحت عقبة من العقبات التي كانت في طريقها

ولكن حنان الأمومة على فقدان الابن راح يتضارب مع رغباتها التي تمنت موت الطفل وباركت وفاته، ومن ثم راحت تؤاخذ نفسها على الشر الذي تمنته للطفل والذي استجابت له السماء ثم راحت تحس بنوع من السعادة من أن السماء لم تستجب لبقية ما تريد فتقضي على بقية الذين تود لهم الموت؛ فكانت تتحسس الناس لتتأكد من وجودهم، وهذا هو

السبب الذي كان يدعوها لأن تتلمس الأشياء بينما لتتأكد من وجودها عندما كانت تقول «هل هذه هي أمي؟!»

وهي في قرارة نفسها تمنت الموت لابنها الآخر لأنه كان عقبة من ضمن العقبات التي ودت زوالها، ولكنها خشت أيضا أن تتحقق تلك الأمنية كما تحققت الأمنية الأولى بوفاة ابنها الآخر، ومن هنا خامرها شعور قتل ابنها للتخلص منه، ثم ضاقت من نفسها على ابنها وخشت أن تقتله فجمعت السكاكين ووضعتها في مكان بعيد عن متناول يدها

وكان يخيل لها أنها ترى أمعاء ابنها الداخلية وهي تحتضنه، هذه التخيلات هي نتيجة ما تتجاوب له نفسها من شرور ورغبات عندما يمزق السكين بطن الطفل، وهي تظن أنها ترى الله وأنها تتحدث له.. هذه الظنون بمثابة رجوع في أمنياتها لابنها فكأنها تريد أن تقول لله ألا يأخذ ابنها الثاني كما أخذ ابنها الأول، وأنها ليست جادة في أمنياتها

وكانت تتمنى موت زوجها ولكنها في الوقت نفسه آخذت نفسها على هذا التمني الشرير فكأنما كانت تريد لزوجها الموت، وفى الوقت نفسه تريد له البقاء، ومن هنا رأت زوجها في المنام وهو يصارع رجلا آخر ويقتله.. وتفسير ذلك أنها رأت زوجها يصارع تمنياتها الشريرة، ولكن بقاء زوجها حيا ظل يؤرقها لأنه حجرة عثرة تقف أمام تمنيتها، أعني أن في حياته ما يحول دون زواجها من شقيق زوجها الرجل الذي تحبه

ويعتقد البعض أن الارتباط بين النزعات النفسية الكامنة ميسور الحل وأن العقد الملتوية في نفس هذه المريضة من المسائل التي يمكن التعرف عليها، وبالتالي يمكن حلها فكثير من العلماء النفسانيين تعوزه المهارة القوية والخبرة العميقة والمقدرة الفنية فيقف عاجزاً غير قادر على تفهم التيارات التي تلعب دورها في تكييف نفسية هذه المرأة. وبدلا من أن يكون عاملا لتخفيف الآلام عنها قد يكون من العوامل التي تزيد همومها بما يعمد إليه من تكليفها لكثير، بينما هو عاجز عن تفهم الحقيقة وعاجز عن أداء أي خدمه لها.

وإن قصصاً عديدة أخرى من هذا النوع تحدثنا عن الغموض الذي يكتنف النفس البشرية فقد زارني أحد المرضى وهو شاب في دور المراهقة وحدثني عما يعانيه من آلام، فقد كان يعاني الثأثأة كما كان يعاني الكثير من الأمراض الجسمية الأخرى بينما إذا وضع سبابته على أنفه تذهب عنه الثأثأة ويصبح في إمكانه أن يتحدث بطلاقة وتزول عقدة لسانه.

هذا الشاب كان كثير التعود على العادة السرية، كثير الممارسة لها، وكان يخشى أن يضبطه بعض الناس وهو يزاول عادته المريضة، وكان والده يعرف عنه ذلك الداء فطلب منه إذا ذهب للنوم أن يضع يديه الاثنتين فوق غطاء السرير

والتفسير لهذه المغالطة النفسية سهل وبسيط، وإني أسألك عما يمكن لك أنت أن تستشفه من وراء هذه الطلاسم التي تمكنه من الكلام بطلاقة إذا وضع إصبعه على أنفه؟!

إنه يريد أن يشهد العالم بأنه لا يحاول العادة السرية وأن يديه جوار أنفه بعيدتان عن موضع الجريمة، ومن طبع هذا الغلام الكذب، فقد حدثني مرة عن قصة طويلة فهمت في لحظتها أنها قصة من نسج الخيال فسألته عن الداعي له بأن يكذب علي بمثل هذه الأسطورة؟ فقال لي: إنه لا يعرف المعنى أو الداعي إلى أن يلجأ إلى الكذب، اللهم إلا أن هذا الخيال القصصي جاء له مرة واحدة، فأراد بدورة أن يتحدث به معي في صورة قصة ضعيفة.

وقد حدث مرة أن مرض أحد المدرسين مما استدعى إدارة المدرسة بأن تصرف التلاميذ لعدم وجود مدرسهم، فلما ذهب إلى منزله وسأله أبوه عن سر حضوره على غير عادته فبدلا من أن يقول له الصدق زعم بأن سقف المدرسة قد سقط مما اضطر إدارة المدرسة بأن تصرف الطلبة، ولما استجوبه والده عن بقيه قصته الخرافية دخل إلى كذبة أخرى ثم راح يتدرج بالحديث حتى ذهب إلى قصة أخرى خيالية وظل كذلك حتى عجز عن الاسترسال في الكلام فراح يثأثيء بالكلام، فسألته عما لو أنه يشعر بسعادة من جراء ذلك الكذب؛ فقال: نعم؛ فسألته «إذا أنت سعيد من مرض أستاذك بدلا من ان تشعر بعطف عليه شأن أي تلميذ لطيف العشرة»؛ فقال «فعلا» إني أشعر بلذة عندما يمرض أستاذي ولكني لا أريد

أن أذكر كلمة «المرض» لأني أخشى أن يتمكن والدي من أن يستشف دخيلة نفسي وشعوري.

وقد أزاح التحليل النفسي عما يخامره من شعور نحو أبيه فهو يتمنى أن يصاب والده بداء يقعده عن القيام، وكان هذا الشعور الذي يخامره هو السبب الذي كان يدعوه للكذب فاختلق قصة طويلة حتى يبتعد عن الكلمات التي ترتج منها نفسه ويكون فيها ما قد يفضح سره، على أن هناك سبباً آخر يثير قلبه للكذب، فقد كان يحاول عن طريق خفي أن يرى مدى علم والده عن ميله للعادة السرية فكأنه كان يحاول اختبار والده عن مدى مقدرته (الوالد) في معرفة الأسرار واكتشاف الحقيقة فكأنه إذا نجح في أكاذيبه هذه دون أن يكشف منها والده شيئا فإن في مقدرته أن يحاول العادة السرية في الظلام دون أن يتمكن أحد من معرفة سره.

قبل أن يأتيني هذا الغلام ذهب إلى أخصائي آخر غيري، ولقد حاول معه ذلك الأخصائي أن يعالج تأتأة لسانه بالقراءة السريعة في الكتب المختلفة وبعد القراءة مرة أو مرتين طلب منه ذلك الأخصائي أن يغلق الكتاب ثم أمره بأن يجلس صامتا فلما فعل ما أمر به الأخصائي واجهه قائلا: (أنت تمارس العادة السرية).

لا شك أن هذه أعنف صدمة يمكن لطبيب أن يوجهها لمريضه؛ فقد انتاب الغلام خوفا شديدا من أن يكون سره معروف للعالم كله، ومما زاد الطين بلة أن ذلك الأخصائي بدلا من أن يثير مخاوفه راح يضاعف له

الرعب في قلبه، فقال له: «إن أي انسان يمكن له أن يستنبط بسرعة من النظر الى التجاويف العميقة التي تحيط بعينيه، يمكن له أن يستنبط أنه يمارس العادة السرية».

ومن ثم انتاب الطفل إحساس شديد بأن العالم كله ينظر اليه ويعرف سره، فكان لا يتحدث إلا إذا وضع إصبعه على أنفه، كأنه بذلك يريد أن يستشهد العالم بأنه برئ مما يزعمونه نحوه..

وإني لأتساءل عن السبب الذي كذب عليّ في قصته الخيالية بأسلوبه الخرافي الذي يزعمه مع الناس جميعًا إنه أراد بذلك أن يختبر مدى مقدرتي في إمكاني التعرف على الحقائق، وإني أظن أنه عمد إلى هذا الأسلوب عندما واجهته بأشياء كثيرة عن نفسي لم يسبق أن سمعها من أحد غيري، فكأنه أراد بذلك أن يعرف مدى قوتي في اكتشاف الكذب، وهذا الكذب جاء بدون تفكير نتيجة للكبت، وهذا كذب غير إرادي أو هو تصرف فوق طاقته.

وأنتقل إلى قصة أُخرى من قصص الغموض النفسي، وهي عن رجل يمتهن التجارة، يقضي طيلة يومه في تفكير مُتواصل عن مكان حانوته فتُخالجه رغبة قوية لبيع محله القديم ويشتري بدلًا عنه آخر في وسط المدينة، مع العلم بأن حانوته القديم رائج البضاعة ويدر عليه دخلًا كبيرًا، ومع ذلك فهو غير سعيد بمكانه الراهن، وانتهى به التفكير إلى أن ينفذ

الفكرة التي في ذهنه وافتتح حانوتا في المكان الذي يريده، ومع ذلك راح يُؤاخذ نفسه على العجلة.

هذا التصرف يُسيطر عليه تفكير عاطفي، ففي ذهن هذا الرجل رسخت فتاة كانت تعمل في إحدى الحوانيت الحديثة، وكانت صغيرة جذابة وجميلة، وكانت زوجته امرأة مُسنة فكان في استبدال الحانوت القديم بالحانوت الجديد نغمة رمزية بما يجيش في صدره من رغبة يتمنى فيها أن يستبدل فيها زوجته المُسنة بتلك الفتاة الصغيرة الجميلة. فلما استبدل الحوانيت ببعضها، راح يُؤاخذ نفسه عن رعونة تصرفه، فإن حانوته القديم أو بمعنى آخر زوجته القديمة أغلى ثمنًا وأعرق قيمة من ذلك الطلاء الخلاب الذي يُغطي ضعفًا ونقصًا.

لقد اقترف الرجل جريمة في حق الماضي وحق الخدمات الطويلة التي بدلًا من أن يُجازيها بالشكر والثناء كان معها قاسيًا جبارًا.

وهذه قصة رجل في الثانية والسبعين من عمره يعيش في رعب، فهو يخشى أن يغتاله بعض المُجرمين، ومن ثم يعيش في جُبن ليتحاشى كل ما من شأنه أن يثير الناس ويُؤدي إلى الاحتكاك بهم، وبالرغم من السمعة الطيبة التي يتمتع بها بين جيرانه، وبالرغم من الحيطة الشديدة التي يعمد إليها من المزاليج الكبيرة التي يقيمها وراء بابه ما زال القلق العصبي يأخذ بتلابيبه مما هد مضجعه وأبعد عنه النوم والراحة، وهو دائب البحث عن الوسائل التي تخلق له الخوف وتخلق له التعب، ومع أن هذه الوسائل خيالية من بنات

تفكيره، لا أصل لها إلا أنه مُتمسك بها ليُحقق الهدف الذي يرمي إليه وهو وجود سبب للخوف، فمثلًا يظن أنه مشى أمام زيد من الناس دون أن يقرئه السلام وأن زيدًا طواها في نفسه، وهو إذ سار في طريق عام وحدث أن واجهته فتاة في طريقها قادمة من بعد ترك لها جانب الشارع كله ليعرج إلى الجانب الآخر لأنه يخشى أن يحتك بها مُصادفة أو يلمس جانبًا منها فتزعم عليه بعض الشيء بالباطل مما قد يعرضه للمسئولية والمؤاخذة.. ولقد قرأ مرة في إحدى الصحف عن إحدى المُحاكمات القضائية الخاصة ببعض المسائل الجنسية الشاذة فانتابه قلق شديد واضطراب عنيف، فقد راح يسائل نفسه وهو الكثير الخلطة بالناس، ما يكون موقفه لو أن شابًا شريرًا ادعى عليه شيئًا بالباطل؟!

ولقد حدث مرة أن كان يزور إحدى السيدات اللائي يعرفهن وتصادف أن تركته السيدة في الصالون وحده وغادرت الحجرة لبعض شئون البيت، وفي تلك اللحظة قدمت الخادمة تحمل له التحية فنجانًا من القهوة؛ فلم يلبث أن انتابه قلق شديد فقد خشي أن تدعي عليه الخادمة شيئًا مما قد يسيء إلى سمعته فلم ير بُدًا غير ترك المكان على جناح السرعة، وهكذا راح الخوف الهستيري يلعب دورًا كبيرًا في ذهنه دون أن يكون هُناك سبب أو مُبرر له.

ولقد أزاح التحليل النفسي أن هذا الرجل المُسن يربط غرام عنيف بابنة زوجته، وأن هذه التصرفات الشاذة التي أخذت مظهر الخوف والجُبن إنما هي بديل لما يُعانيه من ميول كي تزيح تفكيره عن الرغبات الجنسية

التي استحوذت على عقله، فكأن الخوف الجنسي والخوف من افتضاح حالته مع ابنة زوجته قد ارتد في صورة الخوف على حياته من شرور الحياة وشرور الناس.

أما القصة التالية فترينا لونًا آخر من الألوان التي تأخذ فيها النفس ثوبًا غير الثوب الأصلي الذي ترتديه، وهي عن شاب في فجر الحياة، من بيئة فقيرة ابتدرني قائلًا وعلى وجهه أمارات التعب الشديد «سيدي الطبيب.. أرجو أن تنقذني مما أنا فيه، فسوف أنتحر إذا لم أتخلص من مرضي»؛ فسألته «ما بك؟! وما الذي تشكو منه؟!»، فقال بسرعة ولهفة: «إني أشكو احتباس البول»، فظننت أن ما يُعانيه الرجل إنما من جراء مرض عضوي فقد تكون بالمثانة بعض الالتهابات مما قد يؤدي إلى الاحتباس، ولكن الكشف الطبي أثبت أن الجهاز البولي سليم وخال من كل الأمراض، فنظرت إلى الرجل وكأني أُريد أن أقول له بأن حالته سليمة وأظنه فهم معنى ما أرمي إليه فتكلم مُوضحًا الأمور، قال:

«أعرف أن حالتي الجُسمانية سليمة ولكن ينتابني خوف من أن يكون البول مُحتبسًا، على أني إذا ذهبت لأُجرب بنفسي رأيتني مُعافى، وبالرغم من سلامة نفسي وبالرغم مما أُحاوله لأقنع نفسي بأنني لست مريضًا إلا أن هذه المُحاولات لم تشفني وما زلت أُعاني من شكوكي في نفسي وخوفي من احتباس البول مما هد مضجعي».

هذه حالة نفسية لا تمت إلى المرض في شيء، ولكن قد يغيب أمرها على كثير من الأطباء فيظنون أن هؤلاء المرضى في حاجة إلى علاج جسمي فيعمدون إلى حقن المريض بمركبات الغرض منها استدرار البول أو مُعالجته ناسين أن المرض العقلي الكامن في ذهن المريض هو الذي يُسبب هذا الشعور، والشعور هُنا وهم، والوهم الذي يستحوذ على المريض يكون بمثابة كابوس مزعج يورق عليه حياته ويزعجه ويثير نفسه.

ولنعد إلى قصة مريضنا الشقي لنجد أنه فعلًا ذهب إلى عديد من الأطباء وحاول الكثير من الأدوية دون أن يصل إلى شفاء، وأنه ظل صريع الوهم حتى بات قريبًا من حافة الجنون أو الانتحار، ولقد تأثر عمله ونقص إنتاجه وضعفت صحته، وقد أصبحت حالته سيئة خالية من كل النور، ولقد اشتد الألم به مما جعله ينظر إلى العالم البغيض الذي أمامه بمنظار أسود، فبات كل شيء يبدو في دكنة ساكنة حزينة حتى أن ابنه الصغير الذي يعبده ويحبه بات لا يُقدر، من كثرة ما به من ألم، بات لا يقدر على النظر إليه.

إننا نقف هُنا لحظة لنجد من فلتات اللسان فرصة تصل بنا إلى الطريق السليم فكل كلمة ينطق بها الإنسان تُعبر عن معنى خفي، فاحتفظت بجملة كراهيته لابنه لأربطها بسلسلة مرضه، ولقد فهمت من حديثه أن مرضه بدأ به منذ أربعة أشهر ثم راحت حالته تتحسن نوعًا ولكنها عادت إلى أشد ما كانت عليه مما جعل حياته جحيمًا، وجاءني في اليوم التالي ورحت أتحدث إليه عن حياته العائلية. فأخبرني بأنه كان موفقًا

في زواجه وسعيدًا في بيته فقد جاءت زوجته نتيجة حب عميق، وهي امرأة مثالية ثم راح يطنب المديح لها ويكثر الكلام عنها، وبعد ذلك راح يتردد علي يوميا دون أن يخرج كلامه عن هذا المعنى.. وبعد أسبوع من زيارته لي قال بأن ما حدثني عنه لم يكن نتيجة حب، وإنما نتيجة صدفة ومنفعة فقد جاءه أخوه مرة وأشار عليه أن يتزوج لأنه بلغ به السن مبلغا وأنه يعرف فتاة ثرية وجميلة ومناسبة، ولكنه اكتشف بعد الدخلة أن مشورة أخيه غير سليمة، ومن أجل ذلك راح يعيش مع زوجته جحيما..

وبعد أسبوع آخر من زيارته لي بعد أن اطمأن لي ووضع كل ثقته في شخصي راح يحدثني حديث الصدق فبدأت تنجلي أمامي الأسباب التي أدت إلى احتباس البول أو بمعنى آخر الأسباب التي أدت إلى انهياره العصبي؛ فقد فهمت منه أن المتجر الذي يعمل فيه أرسله مرة الى إحدى السيدات ليحصل دينا عليها، وزوده بمعلومات صريحة فيها معنى التهديد بأنها إذا لم تدفع ما عليها فسيلجأ المتجر إلى مقاضاتها، وأرادت السيدة أن تكسب بعض الوقت فطلبت إمهالها أسبوعا مقابل أن تعطيه نفسها، ورضخ الرجل للإغراء وأجل الإجراءات المالية فترة كما أرادت، وفى اليوم التالي أحس بمرضه وقد شك في أن تكون هذه السيدة مصابة ببعض الأمراض وأنها نقلت اليه العدوى فراح يعرض نفسه على الأطباء الأخصائيين في الأمراض التناسلية، وقد أكد له هؤلاء خلوه بتاتا من المرض، ولكنه لم يقتنع فقد تملكه الشك والظن، ومازال يشتد به المرض حتى بات قريبا من الجنون.. وفى غمرة الاضطراب العصبي أفصح الرجل الى امرأته عن حقيقة ما كان يساوره من هموم فتحسنت حالته نوعا نتيجة

للعبء الذي أزاحه من على صدره ولكن العصبية لم تلبث أن عادت إلى حالتها الأولى

ولفتة سريعة على شخصية هذا الرجل، نجد أنه متدين يقيم وزنا كبيرا للمبادئ الدينية فهو يعتقد أن فعلته مع تلك السيدة جريمة شنعاء، ولقد كان اعترافه الى زوجته بمثابة التوبة وطلب الصفح والغفران حتى يرضي ضميره، ولكن هذا الاعتراف لم يشفع له ولم يقبل ضميره توبته وظل ثائرًا عليه.

وثمة لفتة أُخرى على هذا الرجل نجد أنه لا يحب زوجته وأنه دائم الخصام معها، ومن هنا كانت ثورة الضمير، فبالرغم من الاعتراف للزوجة فكأن لسان حال ضميره يقول له: كيف إذن تعق زوجتك المحللة لك وتترك نفسك لامرأة أُخرى تستهويك، ومن ثم اضطربت نفسه وخالجه هذا الإحساس المريض وراح يعيش في جمود ذهني فكان شعوره بالرضى فيه إحساس الندم وإحساس عدم العودة إلى الجريمة.

وهذا الشعور يشبه شعور فتاة في ريعان الشباب جاءت تشكو لي همًا وذلك أنها رأت مرة سيدة كانت تركب معها الترام، وكان وجه هذه السيدة قبيحًا وقد رسخت صورة هذه السيدة ذات الوجه القبيح، رسخت في ذهنها بشكل قوي حتى باتت غير قادرة على أن تنزع نفسها من ذلك الخيال العنيف، فكانت تتصورها في الصباح وفي المساء وفي كل وقت، ومن أجل ذلك الأرق النفسي جاءت لي تشكو همها.

إن تفسير هذه القصة سهل وبسيط، فهذه الفتاة لها وجه ذميم، يهودي السحنة، وهي أقرب في طابعها وشكلها من المرأة الذميمة التي رأتها في الترام، ومن ثم رسخ في ذهنها أن مُستقبلها عندما تتقدم بها السنون سيكون أشبه بتلك المرأة الذميمة، فخالجها القلق عن نفسها ومصيرها. ومما زاد في حسرتها أنها كانت مخطوبة إلى شاب رقيق العاطفة حلو العشرة والمظهر فراحت الظنون تُلاحقها عن المصير الذي تستهدف إليه وعن الكآبة التي تنتظرها في خريف حياتها عندما تقترب شمسها من الانحدار، مما قد يُؤدي إلى ضياع الزوج المُنتظر، فكأن الحزن القابع في نفسها إنما يتركز في المصير السيء الذي ينتظرها.

وهذه القصة التالية مأساة عائلية تخفي وراءها لونًا من الألوان القاتمة الذي يخيم في حزن عميق على بعض الناس. وهي قصة مثيرة لامرأة في الثلاثين بها شيء من الوسوسة والخوف، فكل بضع دقائق تدعو الله قائلة «يا رب احفظ لي زوجي وأولادي» ويُسيطر عليها الرعب بشكل عنيف فهي تخشى أن يعبث الأولاد بسكاكين المنزل مثلًا فيتعرضوا للخطر، ومن أجل ذلك تحفظ هذه السكاكين في مكان أمين وبعيد عن الأيدي، وهي لا تسمح للخادمة أن تقف بجوار النافذة مثلًا بينما تحمل معها طفلتها لأنها تخشى أن ينتاب الخادمة دوار أو تعتريها لطشة عصبية فتسقط منها الطفلة أو تلقي بها إلى الشارع، وينتابها أرق شديد فتقضي مُعظم ليلها مُتقلبة ساهرة، وهي ضعيفة الشهية للطعام تشعر بقلق واضطراب عصبي، وهي لا تجرؤ أن تظل وحدها في مكان، ومن أجل ذلك تطلب من زوجها أن يلغي كل مُقابلاته ليظل جالسًا إلى جوارها مُمسكًا بيدها في عطف وحنان، وهي

دائبة الحزن كئيبة النفس فتجلس في أسف ثم لا تلبث أن تنفجر باكية.. ولقد اشتدت الجذور المريضة في نفسها وراح الشك يملأ كل قلبها، فكانت تشك في حقائق الأشياء، وفي الحقائق الملموسة وفي حقيقة الوجود وفي حقيقة العالم الذي يعيش حولها، وكانت تُسائل نفسها «هل اليوم السبت؟!» ثم تُراجع نفسها قائلة «لعلي خاطئة وأظنه الأحد؟!» وكانت إذا نظرت إلى رجل مثلًا تساءلت «هل هذا إنسان؟! أظنني مُخطئة.. ولكن سأُحلق فيه لأتأكد من أنه إنسانٌ؟!».

إن سبب كل هذه المأساة بسيط فقد اختلف زوجها مع عائلتها وأهان والدها بألفاظ نابية، وفي هذا الخصام اختارت أن تقف إلى جوار زوجها فكانت تُدافع عنه أمام عائلتها، ولكنها كانت في قرارة نفسها تلقي اللوم على الزوج، فتُردد القول «لو كان يحبني لما تصرف بهذا الشكل مع عائلتي ولأقام وزنًا لكرامتي واحترامي». وقد قاطعتها كل عائلتها ولم يتصل بها أحد منهم اللهم غير ابن عم لها كان يتردد عليها من حين لآخر، وكان في هذه الصلة ما أثار كل ذكرياتها فراحت تلقي عليه كل عواطفها فأحبته على أن هذا الحب اصطدم بظروفها كامرأة مُتزوجة ولها أولاد، فإذا أرادت أن تملكه فيجب عليها أن تتخلص من زوجها ومن أولادها، فانقلبت الرغبة التي تجيش في صدرها لأن يموت زوجها ويموت أولادها كي تتمكن من أن تتزوج الرجل، انقلبت هذه الرغبة إلى قلق وحيرة فاضطراب فتوتر عصبي فانهيار نفسي، وبدت انعكاسات تلك الرغبة في سريرة قلبها ومن ثم كانت تدعو الله كل حين لأن يحفظ لها زوجها ويحفظ أولادها.

إن كل الرغبات اللا إرادية إنما مصدرها الشعور الداخلي الكامن في النفس، وأنت إذا تعمقت في حقيقة هؤلاء المرضى وجدت أن سبب اضطرابهم وأحزانهم هو الصراع النفسي الشديد، هذا الصراع يُؤدي في كثير من الحالات إلى القلق، فالاضطراب العصبي، فالانهيار النفسي.

الوسواس الخناس أو النزعات الإجرامية

لعل من الطريف أن نذكر أن مُعظم الأطفال قد يحدوهم في كثير من الأحايين الميل الإجرامي فتنتابهم لحظات يحسون فيها بجوع نحو الجريمة أو بتعطش كبير نحو الدماء، ولقد مرت بي حالات كثيرة تمكنت خلالها أن أدرس نزعة الجريمة التي تجيش في قلوب الكثير؛ فالطفل في الواقع صورة للإنسان البدائي الذي انتقص التهذيب، ومن ثم تبدو الغرائز الطبيعية الأولى مُجسمة في شخصه، وهو أناني مُحب لنفسه ومن أجل الأنانية يُحاول أن يأخذ إلى نفسه كل شيء يقع عليه ناظره، ومن أجل هذه الأنانية أيضًا لا يقيم وزنًا للمبادئ أو المثاليات، ومن أجل هذه الأنانية أيضًا يذهب إلى الحضيض المادي والمعنوي، فهو لا يعرف النظافة المادية أو المعنوية فيوسخ ملابسه ويوسخ نفسه ويوسخ ضميره دون أن يتورع عن الخطايا أو الدنايا.

أعرف قصة طفل في السابعة من عمره، مات عمه الذي كان يتكفله فسرعان ما راح يمرغ نفسه في الوحل ثم بعد ذلك راح يقتل كل قطة تُقابله، وتفسير هذه التصرفات أنه قيل له أن الإنسان مخلوق من طين فكان يمرغ نفسه في الوحل ليتبارك بالطين الذي يرقد عمه في ترابه، وكان

يقتل القطط لأنها رسخت في ذهنه بأنها رمز للحيوان الشرير الذي يخطف فريسته ويهرب بها، وفي هذه تشبيه ضمني لملك الموت الذي يختطف الأرواح ويذهب بها إلى السماء، على أن نزعات الجريمة التي تبدو مُبكرة في الطفولة سرعان ما ترتوي ويظهر رد الفعل بشكل أكبر خلال الكبر.

أعرف رجلًا عصبيًا يظن أن في طاقة الإنسان أن يجعل عضلاته في قوة الفولاذ وبذلك يُمكن له أن يعيث في الأرض فسادًا، وهذا الخيال شبيه بخيال الأطفال، فمع أن الرجل قد كبر إلا أن عقله وتفكيره وميوله الإجرامية ما زالت صبيانية.

وأعرف شابًا في الثلاثين من عمره كان إذا رأى رجلًا مُنحني الظهر سرعان ما ينتابه غيظ شديد واضطراب نفسي وراح يتحرش به يريد مُخاصمته، وقد أزاح التفسير النفسي بأن مرد ذلك راجع إلى الطفولة، فقد تعود والده أن يقول له وهو طفل «سر مُعتدل القامة» وقد رسخت هذه الجملة في ذهنه ولما كبر نساها ولكنه كان يغضب لأن يرى رجلًا مُنحني الظهر.

وهُناك المريض الذي يشعر كأن عبئًا ثقيلًا على كتفه وكأن الدنيا تستعجله في عمله، فهو دائم الخوف كثير الشكوك يعتقد أن العمل الذي أمامه كثير ومهم وهو كثير الاكتئاب وكثير الكلام عن متاعبه يشعر كأن لسان حاله يُريد أن يقول «أنا لم أنته من عملي ويجب أن أُؤدي كل شيء».

ومرد هذا الشعور يعود إلى الطفولة عندما كان يستحثه والده في مذاكرة دروسه فيقول له «هل انتهيت من واجبك؟» فقد تعود والده أن يُراجع له كل دروسه ويُساعده على المُذاكرة والحفظ وكان يطلب منه أن يعيد كتابة الكلمات التي أخطأ في حفظها، وكان الولد ينظر إلى تصرفات الوالد معه عندما يطلب منه إعادة تصحيح الأخطاء نظرة العقاب ونظرة التلميذ إلى الأستاذ.. وعندما كبر الطفل ارتدت صورة تلك الفترة الممسوخة من حياته على أحداث الكبر، فبات ينظر إلى كل شيء بمنظار الماضي، فمرض، وكانت النتيجة هو ما رأيت من شعوره الذي يُعانيه وإحساسه بالخوف والشك واعتقاده بتكدس الحياة على ظهره.

وأعرف فتاة كانت وسواسة وقد تركزت وساوسها على أُذنها فكانت تغتسلها في اليوم عشرات المرات، وبالرجوع إلى ماضيها وجدنا أن أمها كانت كثيرة الاعتناء بها كبيرة الاهتمام على نظافتها وكانت تشرف بنفسها على تنظيفها، وقد ارتدت صورة الطفولة في شكل مبكر على حياتها الراهنة حتى بدت في حاضرها الباهت.

وأعرف شابًا كان وسواسًا في تنظيف أسنانه فما تكاد تمض ساعة من الزمن حتى يذهب إلى دورة المياه ويُنظف فمه وأسنانه، وكان يحتفظ معه دائمًا بفرشاة ومعجون أسنان، وكان مرد ذلك الخاطر أن أُمه سلطت على طفولته إيحاءً قويا بضرورة الاعتناء بتنظيف الأسنان فكانت تُنظفها له في الصباح والمساء، وقد ارتدت هذه الصورة الماضية التي عاشت في طفولته على حياته الراهنة فكان مظهرها هذا الوسواس.

هذه النزعات الشاذة تُسيطر على عقلية الكثير فيحسون خلالها كأن هاتفًا من أعماقهم يُناديهم لأن يهبوا ويفعلوا ما يأمر به فينصاعوا دون تفكير ودون مقدرة على عصيان أمر ذلك الهاتف، على أني أتساءل ماذا يكون شأن هؤلاء، لو أن هذا الهاتف الذي يُناديهم ويأمرهم، كان هاتفًا إجراميًا عنيفًا عن كونه بسيطًا ميسورًا.

إن أشد أنواع التعذيب النفسي الذي ينتاب المجرم هو ذلك الشعور الذي يسبق وقوع الجريمة، ففي ذلك الحين ينتابه انفعال عنيف، لأن الهاتف الذي يُناديه من أعماقه ليدفعه للجريمة يلهب نفسه ويدفعه للجريمة، بينما الخوف من القانون يُراجعه العودة ويطلب منه المساءلة، وفي هذا الصراع النفسي الشديد يُقاسي المريض الويلات من الآلام العصبية.

إن هؤلاء الذين يخافون الهاتف العميق الذي يجيش في صدورهم، هؤلاء يعيشون في رعب لأنهم يخشون أن يستيقظ فيهم هذا الهاتف يومًا ويدفعهم نحو شرور لا طاقة لهم بها، فكان خوفهم مُضاعفا، فمصيبتهم في الخوف الذي يسبق الجريمة والخوف من أن يوقظ فيهم التفكير في الجريمة.

ولقد حدثتنا التجارب عن خوف عميق راسخ في قاع النفس عن بعض الناس الذين يخشون من أن تستيقظ فيهم لطشة من الجنون أو أن يستولي عليهم شعور يحدوهم لأن يشعلوا النار في الدار، أو أن يلقوا بالسموم في الطعام، ولقد دلتني تجاربي أن النساء أكثر عرضة للإصابة بهذه الأمراض عن الرجال.

وهذه قصة فتاة في التاسعة والعشرين جاءت تسألني المشورة لما ينتابها من إحساس غريب يستولي على جميع حواسها ويطلب منها أن تقتل زوجة أبيها. وهذه الفتاة تمتهن التدريس وتتمتع بصحة جيدة واحترام موفور من زميلاتها وتلامذتها ورؤسائها، وقد أتاحت لي الفرصة لأن أتعرف على والدها فوجدته رجلًا مُحترمًا موفور الصحة كما وجدت زوجة أبيها مُحترمة أيضًا، وقد توفيت أمها عقب ولادة أخيها الذي كان يصغرها بعامين، وبعد وفاة الأم بعشرة سنوات تزوج الأب، على أنه لم يخلد كثيرًا بعد زواجه الثاني فاختطفه الموت، وكانت معاملة زوجة أبيها لها بعد وفاة والدها ممزوجة بالعطف والحنان.

كانت وهي طفلة صغيرة طيعة رقيقة الشعور والإحساس وقد أمضت فترة الطفولة في مدرسة داخلية، وفي هذه المدرسة شربت تعاليم الدين فقد أغلقت عليها الأبواب، وحرمت عليها اللون الباهت، فعاشت الفتاة في جمود ذهني، وفي هذا الجمود كانت نفسها مسرحًا كبيرًا للنزاع النفسي العنيف، وكانت تترك مدرستها بين حين وآخر لتزور والدها في داره فتقضي معه يومًا او بعض يوم فكانت تحس بالحسرة عندما ترى السعادة تخيم على الدار، بينما تعيش في حرمان بعيدة عنها.

وبلغت السابعة عشرة فتركت المدرسة الداخلية والتحقت بالجامعة، ولكنها ظلت تخشى الاقتراب مما قد يشينها أو يخدش كرامتها فكانت تتحاشى الأماكن التي يزدحم فيها الرجال وكان أخشى ما تخشاه هو ان يكتشف أحد من الناس ذلك الخوف الذي يجيش في قلبها ومن ثم عاشت

في قلق واضطراب نفسي، وكانت إذا قابلت رجلًا ظهرت عليها بوادر الانفعال.

وبلغت الخامسة والعشرين وتعرفت إلى أحد المدرسين زملائها ولكن زوجة أبيها حذرتها من ذلك الرجل ومن أغراضه السيئة. وحدث مرة أن دعاها ذلك الشاب إلى رحلة خلوية ولكنها تمهلت قبل أن تعده، ثم راحت تسأل زوجة أبيها الرأي وطبعا نصحت لها بألا تقبل الدعوة، وأحس الشاب بشرخ في قلبه فقطع علاقته بالفتاة وانفصل عنها.

بعد ذلك جلست الفتاة وحدها تبكي سوء حظها ثم راحت تلقي اللوم على زوجة أبيها لأن نصيحتها الغبراء كانت السبب الذي أضاع الشاب، أو بمعنى آخر أضاعت زوجًا كان يُمكن أن يُقدم لها كثيرا من السعادة. وكبرت بها السن دون أن يتقدم لها أحد من الخطاب فراحت ثورتها تزداد عُنفًا على زوجة أبيها، كما راحت في الوقت نفسه تلوم نفسها على التمسك بالدين، فلو أنها كانت أقل لينًا في جمودها الديني وتساهلت بعض الشيء لكانت أحسن حالًا. ولتمكنت من أن تأسر لها زوجًا يلم شملها، وفي ثورة الغضب على نفسها راحت تلعن الزمن وتلعن الدين الذي تمسكت به والذي كان سببًا في ضياع الرجل منها.

وفي أحلامها وخيالاتها وتمنياتها كانت ترى نفسها تطعن زوجة أبيها بسكين، وكان يشتد بها الاضطراب والصراع النفسي، وفي ثورة العاصفة تنقلب على نفسها فتُفكر في الانتحار، وقد ترددت على بعض الأطباء

فنصحوا لها أن تترك المدينة وتذهب إلى الريف لتقضي فيه بعض الوقت طلبًا للراحة والهدوء، وفعلًا سافرت إلى الريف ولكن حالتها ازدادت سوءًا، ثم جاءتني تطلب العلاج. وقد أزاح التحليل عن هذه المرأة شذوذا جنسيا كامنا في نفسها، فقد كانت تشتهي زوجة أبيها، كما أرانا التحليل أيضًا أنها في الوقت نفسه شديدة التعلق بأخيها.

والغريب في هذه النزعات الإجرامية التي تُخامر هؤلاء المرضى أنها تتجه نحو شخص مُعين بالذات، فإذا اختفى هذا الشخص من أمام عين المريض اختفت النزعة الإجرامية التي تجيش بصدره، والغريب أن هذا الشخص الذي تثور ضده النزعات الإجرامية يكون أكثر الناس حُبًا إلى المريض وأشدهم قُربًا إلى قلبه، وأن هذه الثورة مردها العجز عن الإشباع العاطفي فينقلب الحب إلى بُغض شديد وكراهية مريرة ورغبة في الانتقام.

وفي قصة الفتاة التي ذكرناها كان الضغط العصبي شديدًا على ذهنها، فقد كانت تميل إلى زوجة أبيها وكانت تميل إلى أخيها في الوقت نفسه بينما عجزت عن الحصول على أيهما، ومن هنا كانت النكبة النفسية مُضاعفة.

وأنتقل إلى قصة أُخرى، وهي لشاب في الخامسة والثلاثين ينتابه ميل قوي لأن يقتل عمته، وهو دائب التخيل عن كيفية تنفيذ هذا الشعور الذي يجيش بصدره، فكثيرًا ما يتصور نفسه يقتل عمته بسكين ثم يُمزقها إربًا. وقد فهمت أن عمته كانت تحول دائمًا دون زواجه ودون تمكينه من

إقامة دار مُستقلة لنفسه وأن سُلطانها كان يزداد عليه يومًا بعد يوم لكثرة ثورتها واحتياجه ماديًا لها. ومما زاد في أحزانه أنه كان يعجز عن القيام بمهمة الزواج لاعتماده على عمته في كثير من المسائل، ومن ثم راحا يلعبان اللعبة القديمة، فهو لا يحب الفتاة التي تختارها له وهي لا تميل إلى الفتاة التي يختارها لنفسه، ومن ثم ظلت اللعبة تتأرجح بينهما دون أن يتفقا على فتاة تروق لكليهما.

الواقع أن التعلق الشديد بينهما والرباط القوي هو السبب الذي يحول دون الزواج، مما بات واضحًا أمام الفتى أنه لا يُمكن له أن يتخلص من عمته إلا بوفاتها، ومن هُنا كانت تخيلاته فيما يرى من نزعات نحو الجريمة، ورغبته التي تجيش في صدره لكي يقتل عمته.

وهذه قصة امرأة في الثلاثين من عمرها تعتريها خيالات الرغبة بأن تطعن ولديها الاثنين بسكين أو أن تلقي بهما من النافذة، ومن أجل ذلك كانت لا تجرؤ بأن تحملهما لأنها تخشى أن يتغلب هذا الخاطر الشرير الذي يجيش في صدرها فتُنفذ جريمتها فكانت تضع أولادها في حجرة وتحكم إغلاق النافذة وإغلاق الباب عليهما، وهي إذا دخلت إليهما راحت تتأكد من أنها لا تحمل معها سكينًا أو أي شيء آخر قد يُسبب القتل، وهي تضع السكاكين في مكان أمين، في دولاب وتحتفظ بمفتاحه مع زوجها أو مع «الطباخ».

وتفسير هذا الحدث أن خلافًا كبيرًا نشب بين الزوج و(حماته)، فقد تعودت حماته أن تتردد على دار ابنها وتخلق صعوبات عائلية، مما دعا الزوج لأن يطردها من داره ويحرم عليها زيارتها مرة أخرى. وقد انضمت الزوجة إلى الزوج، ولكن في قرارة نفسها كانت تشعر بحزن للإهانة التي لحقت أمها، وقد جاء الخاطر الذي وسوس لها أن تقتل ولديها كرد فعل للسان حالها الذي كان يقول «لولا أبنائي لكنت حرة في تصرفاتي ولتركت زوجي في الحال وانضممت إلى جانب أمي».

إن هذه المرأة تحب زوجها وفي الوقت نفسه تحب أمها، ولكن الصراع الشديد الذي كان يجول في ذهنها عمن تُفضل بين أيهما تنضم كان السبب الذي أثار أعصابها وبالتالي أدى إلى الانهيار النفسي.

ومن القصص الأُخرى الكثيرة الحدوث في حياتنا العامة والشبيهة بهذه القصة قصة الخلاف الذي ينشب بين الأم والزوجة، وفي هذا الخلاف يتحير الرجل في الانضمام إلى أي الجانبين، فهو يحب زوجته وفي نفس الوقت يحب أمه، وفي هذا الصراع من الحيرة العنيفة يسقط فريسة للانهيار النفسي.

وهذه قصة رجل في الأربعين مُتزوج من امرأة يحبها حُبًا عنيفًا، ولكنه يحس بميل شديد من أعماقه يدعوه لقتلها، ولم يجد حلا لأحزانه الكامنة إلا أن يسر لزوجته بهذا الشعور الغريب الذي يُساوره، ولكنها ردت عليه بأنها لا تخاف الموت إذا كان الموت هو الوسيلة الوحيدة التي تُوفر له السعادة.

ومع ذلك ظل الرجل يتخبط في أحزانه دون أن يتمكن من الاهتداء إلى النور، ولما أظلمت الدنيا عليه راح يُحاول الانتحار.

وقد أظهر لنا التحليل أن هذا الرجل يعيش مع زوجته وأمه في بيت واحد، ولكن لسوء الحظ كانت (المرأتان) في خصام مستمر مما بات واضحًا بأنه يجب أن يُضحي بواحدة منهما في سبيل الأخرى، وكان في ذهنه أن يجعل من زوجته (كبش الفداء) لأن النزعة الإجرامية التي كانت تجيش في صدره كانت مُوجهة ضد الزوجة.

والقصة التالية لامرأة في الثانية والستين من عُمرها، يخامرها شعور قوي لأن تقتل أي إنسان يُصادفها، والغريب في هذه القصة أن سنها المُتأخرة كانت من الأمور التي أثارت انتباهي؛ فأنا لم يُصادفني مريض تعدى الستين اللهم غير رجل واحد كان في السادسة والسبعين من عمره، وكان يشكو من هوس في عقله، فقد كان معظم مرضاي بين العشرين والأربعين مما أكد لي أن مُعظم الصغار عرضة للإصابة بالوسواس عن الكبار.

وهذه القصة تهدم كل تأكيداتي وتعلمني أن الأمراض تصيب الكبار كما تصيب الصغار أيضًا. وورثت هذه المريضة أمراضًا عقلية من بعض أفراد أسرتها فقد توفي أحد أعمامها في مستشفى للأمراض العقلية، أما حياتها فكانت سلسلة متتابعة من القلق، فقد ظلت طوال حياتها تعيش في رعب. وقد كانت تخشى أن تأتي أمرًا يسئ إلى بعض الناس بأن تقتل أحدًا أو تشعل النار في بعض المساكن، أو أن تلقي بنفسها تحت عجلات الترام.

وكانت تشعر أمام الناس بالضعف والقلة وبمركب النقص. كما كانت تشعر كأن العالم يلهبها بالسياط ويستحثها على العمل، فكانت تحس كأن الدنيا تلقي عليها بالأحزان والهموم.

لقد كانت أعصابها تضطرب كلما ظهر أمامها لون فيه رمز للجريمة، فإذا رأت مثلًا سكينًا سُرعان ما انتابها انفعال نفسي وقفزت إلى ذهنها فكرة قتل ابنها بهذا السكين. وهي تُحرم على نفسها رُؤية الزهور الحمراء لأن اللون الأحمر يحمل بين طياته لون الدماء وهي لا تريد أن ترى الأشجار المشذبة لأن الأغصان مقطوعة بالسكين.

ورأينا من الضروري أن نضع في خدمتها مُمرضة تشرف على رعايتها فاخترنا واحدة كان اسمها «ماري أنطوانيت». ولكن هذا الاسم استفز كل مشاعرها فقد حمل معه أحداث الثورة الفرنسية وذكريات المقصلة، فراحت تنفر منها ومن كل مُمرضة أخرى، وكان في اسم ماري أنطوانيت ما أزاد حالتها توترًا وعقد مشكلة العلاج أمامنا.

ولقد بلغت حالتها النفسية حدًا كبيرًا حتى باتت على شفا حافة من الجنون، وكان إذا جلس ابنها على كرسي أمامها راحت تصرخ فماري أنطوانيت تُذكرها بالمقصلة بينما ابنها يجلس أمامها؛ فكان دوره سيأتي بعد ماري أنطوانيت، فإذا هم ابنها وجلس على كرسي آخر ازداد صريخها لأنها كانت تظن أنه بتنقلاته هذه ينقل العدوى بين الكراسي فتزداد حالتها توترًا وشدة.

وعلاج هذه القصة يتوقف على نزع الأفكار المريضة التي تثير هذه المرأة، وعلى مُحاولة التدرج بها في الحياة الاجتماعية، وكان يشتد بها المرض عندما تجد نفسها وحيدة لا يُشاركها أحد من الذين حولها في همومها وأحزانها التي تتخبط فيها. وهذا المرض أشد انتشارًا بين الطبقات الغنية، فالثروة من شأنها أن ترتفع بالإنسان وبالتالي تجعله يعيش بين أمواله في عزلة.

وهذه المرأة تعيش في بحبوبة من الثراء والجاه وهي تخشى أن يغتالها بعض الناس ومن هُنا راحت تخشى كل شيء أحمر لأن الاحمرار لون الدم؛ فلو لبس ابنها رداءً أحمر أصبح حينئذ في نظرها رمزًا للخطر الذي يتهددها، فإذا جلس إلى كرسي انتقل الخطر إلى ذلك الكرسي، كما تصبح المنضدة المواجهة للكرسي في خطر أيضا. وهكذا ينتقل الخطر من مكان إلى مكان بالعدوى حتي يمس البيت كله خطر مُخيف وتصبح حياتها كلها مملوءة بالخطر والرعب.

وأنتقل إلى قصة مريضة أُخرى في الثالثة والثلاثين، وهي ابنة أحد الأطباء، وقد جاءتني بصحبة أبيها، وبعد عدة زيارات راحت صحتها تتقدم نحو الشفاء حتى أصبحت سليمة تمامًا، وبعد انقضاء ستة عشر شهرًا من الشفاء التام طلبت منها أن تكتب لي تاريخ الداء وتطور العلاج معها فقالت:

لعل أول الأحداث التي انتابتني ما حدث لي عندما كنت أسير ليلًا خلال بعض الشوارعِ فقد صادفت في طريقي رجلًا أحدب الظهر فانتابني خوف شديد وفزع عنيف فرحت أُهرول في سيري وأنا أكاد أفقد شعوري. وأسرعت إلى داري، ولسوء حظي لم أجد أحدًا هُناك لا أبي ولا أمي ولا أختي اللهم غير (الطباخة) وكانت امرأة جامدة القلب فلم تشعر نحوي بعطف أو شفقة فجلست حزينة.

وسرعان ما عادت صورة الرجل الأحدب إلى خاطري فانتابني رعب شديد وأحسست برغبة في الصراخ، ولكني تمالكت نفسي وضغطت على أعصابي، وهكذا راحت صورة الرجل الشرير تتماوج أمام خيالي من حين لآخر تحمل بين جوانبها الرعب والخوف مما يُثير أعصابي ويهد نفسي.

وكنت أحس بالوحدة إذا ظللت وحدي في الدار، ولكني إذا كنت بصحبة بعض الناس كنت أكثر اطمئنانًا، وتزوجت أختي وذهبت لزيارتها بصُحبة أمي، ولكني عندما عدت من عندها شعرت بميل شديد للبكاء، وراح هذا الميل الحزين ينتابني كلما ترددت عليها.

وكنت أحس كلما جلست مع أختي بإيحاء قوي في أعماقي يحرضني لأن ألقي في وجهها بالأطباق التي أمامي أو بسكين أو أقذفها بأي شيء، وكنت أجد صعوبة شديدة في السيطرة على أعصابي، ولكن الخوف من أن يفلت الزمام من يدي كأن يلقي بي إلى هوة عميقة من الرعب، وكنت أجد في هذه الهوة ما يزعجني ويهز أعصابي.

واشتدت حالة المرض عندي حتي بت فريسة للانهيار العصبي، وكنت أشعر بذلك الميل الإجرامي لكل من أُقابله وأسررت إلى أمي بمخاوفي فراحت تتنقل بي من طبيب إلى طبيب دون أن يتقدم بي العلاج، وأخيرًا ذهبت إلى سيجموند فرويد الذي أحال قضيتي على الدكتور وليم شتيكل.

ولقد أزاح التحليل النفسي عن ثلاثة أمور كان لها الأثر الكبير على نفسيتها

أولًا: التدين الشديد الدي يمتزج به قلبها.

ثانيًا: التعلق الشديد بزوج أختها.

ثالثًا: الشك العنيف في كل إنسان.

فالتدين الشديد كان له أثر كبير على نفسيتها، فقد أغلق قلبها عن كل بصيص باهت يهدف نحو «الجنس»، ومن ثم عاشت في حرمان وكان لهذا الحرمان أكبر الأثر على حياتها الشخصية، ولقد راح الصراع النفسي الشديد يلعب دوره على مسرح حياتها فباتت نفسها موضع نزاع بين الرغبة والرفض، كانت نفسها تطلب وكانت تعاليمها ترفض، فكانت نفسها ثائرة على التقاليد والبيئة والمجتمع، وهذا ما جعل العالم يبدو أمامها في صورة الأعداء الذين يُحرمون عليها المُتعة فراحت تتمنى زوالهم، وكان زوج أُختها واحدا من هؤلاء الرجال الذين اشتهتهم، ولكن وجود أُختها

كان بمثابة حجر عثرة تحول دون رغباتها، ومن هُنا تمنت زوال أختها حتى يخلو لها الجو.

أما الشك في جميع الناس فكان نتيجة العوامل النفسية التي تختلج في قلبها؛ فهذه المرأة كانت دينة وكانت تعاليم الدين تحرم عليها الجنس، بينما هي في قرارة نفسها تمنت أن تشرب من نهر الحب. ومن أجل ذلك راحت تُسائل نفسها عن السبب الذي يدعو رجال الدين أن يُحرموا عليها الحب، اللهم غير النفاق ومن أجل ذلك الخاطر راحت تشك في الدين وفي رجال الدين وفي كل العالم المُحيط بها.

يلجأ الإنسان في كثير من الحالات التي يشتد فيها الهوس به يلجأ إلى التعبد الشديد؛ فالتعبد رمز للنهاية أو الموت الذي تبدأ فيد حياة جديدة، على أن هذا التعبد الشديد غالبًا ما يكون خاليًا من الروح يُؤديه صاحبه في شكل أوتوماتيكي دون تفكير.

وتتميز كل الحالات التي يثور فيها الهوس أو تثور فيها النزعات الإجرامية تتميز بالطابع الآتي:

١- الرغبة الشديدة للموت أو الانتحار.
٢- الرغبة الشديدة في الارتداد لعهد الطفولة.
٣- مُحاولة إيجاد تسوية نفسية بين الرغبات الكامنة في العقل الباطن وبين رغبات العقل الواعي أو الضمير.
٤- وفي كثير من الأحايين تُمازج هذه الرغبات صبغة دينية.

وأنتقل إلى قصة أُخرى وهي لامرأة في ربيع الحياة تشكو من قلق واضطراب شديد عصبي وانهيار نفسي فتجلس صامتة لحظات ثم تنفجر باكية دون أن يكون هُناك سبب للحزن أو البكاء. وينتابها شعور قوي للجريمة وميل كبير لقتل أولادها، فإذا هجع أطفالها في السرير جلست على حافته وراح شعور الجريمة يُخامرها فلا تلبث أن تُغادر الحجرة بسرعة خشية أن يتغلب هذا الخاطر عليها فتُنفذ الجريمة ثم تجلس في الحجرة المُجاورة وتنفجر باكية كما يُسامرها خاطر الموت، فهي تخشى على نفسها بأن تلقى بها تحت عجلات الترام وتخشى أيضًا أن يُغمى عليها في الطريق العمومي فتضيع بين العجلات.

بدت أحزانها تأخذ الثوب القاتم عندما انتقل زوجها سعيًا وراء العيش وتركها وحدها في صُحبة أولادها إلى أن يستقر به المقام في البلد الجديد، وعندما طلب منها أن تُوفيه بزيارتها، عندئذ انتابها هذا الخاطر المريض. وقد أرانا التحليل النفسي امرأة تُعاني البرود الجنسي تبغض زوجها شدة البغض وقد وجدت في غيبة زوجها فرصة مُناسبة للابتعاد عنه وبالتالي للتخلص من وجوده.

وعندما طلب منها أن تلحق أحست بالغمة فقد كان شعورها الكامن كان يتمنى لو أن يتركها الرجل وشأنها، بعيدة عنه ولكن ذلك لا يتأتى إلا بالفراق.. والفراق من الأمور التي يصعب تنفيذها خصوصًا إذا كان يربط الزوجين أطفال فكأن وجود الطفال ما يحول دون سعادتها، وبالتالي كانوا سببًا لأحزانها، ومن ثم راح يُسامرها خاطر التخلص منهم وهو الميل الذي

كان ينتابها لكي تقتلهم، أما البكاء فكان مرده حنان الأمومة وتأنيب الضمير على تمنياتها الموت لأولادها، أما ميلها لأن تلقي بنفسها تحت الترام فذلك لأنها كانت تخشى أن يتغلب عليها الخاطر الإجرامي فتقتل أولادها فعلًا فكأنها أرادت أن تقتل نفسها حتى ينجو أولادها أما الخوف من أن تُصاب بدوار ويغمى عليها في الطريق العام.

فهو رد فعل لانفعالها الجنسي، فهذه المرأة مُصابة بالبرود الجنسي محرومة من طبيعة الحياة والوجود، وهي في قرارة نفسها تحسد الفتيات الحارات اللاتي يلقين بأنفسهن بين أحضان الرجال دون أن يقمن وزنًا للرباط المُقدس، أما هي وهي المُخلصة التي عاشت في حرمان فقد كانت تود في قرارة نفسها أن تصبح طليقة من القيود حُرة في تفكيرها فكانت تتهيب السقوط، ومن ثم كانت تتمنى أن يُغمى عليها في الطريق، ففي السقوط في الطريق العام ما يعرضها أمام الرجال وفي ذلك تسوية لرغباتها المُتضاربة وإشباع للنزعات النفسية الكامنة التي تجيش في صدرها عن الميل نحو الرجال أو بمعنى آخر حل لعقدة البرود الجنسي في صدرها.

إن هؤلاء المرضى يُعانون مركب النقص يشعرون بأنهم محرومون من الحب فكأنهم في انزوائهم عن الحياة يُحاولون أن يستجلبوا العطف الذي لا يتمتعون به، كما أن لجوءهم إلى المرض إنما بمثابة عقاب لأنفسهم لعدم اكتمالهم النضوج والارتقاء، فالمرأة التي تحب زوجها قد تجد في الخروج إلى الطريق العام ما يعطيها فرصة التعرض للرجال ليغرروا بها مما قد يُؤدي بها

الطريق إلى الخيانة الزوجية ومن أجل ذلك تُؤاخذ نفسها عن التفكير في الخيانة الزوجية.

ومن ثم ترى الموت سببًا معقولًا كجزاء لما اقترفت نفسها، ومن هُنا نرى النزعات الإجرامية مصحوبة دائمًا بالانتحار، ولا شك أن الانتحار عند العصبيين هو أسهل وسيلة للهروب من المسئولية.